نماثيل الزهر

وهو نوع أندلسى مستطرف لم يرو لنا التاريخ فيه غير خبر واحد* عن المنصور ابن أبى عامر ، وقد كان أراد يوماً أن يمتحن بداهة أبى العلاء صاعد اللغوى ، فاستدعاه إلى مجلسه وقد أعد طبقاً عظيما جعل فيه سقائف** مصنوعة من أنواع النَّوْر ، ووضع على السقائف مركباً من ياسمين فيه أمثال الجوارى ، وتحت السقائف بركة ماء قد ألقى فيها لؤلؤاً مثل الحصباء ، وفى البركة حية تسبح ، وطلب منه وصفها فقال على البديهة :

أبا عامر هل غير جـــدواك واكف ... وهل غير من عاداك فى الناس*** خائف
يسوق إليك الدهر كل غريبـــــة ... وأغرب**** ما يلقاه عنـدك واصف
وشائع نوْر صاغها صيّب† الحيا ... على حافتيهـــــا عبقر ورفارف††
ولما تناهى الحسن فيها تقابلت ... عليهـا بأنواع الملاهى الوصائف
كمثل الظبـاء المستكنّة كنّساً ... تظللها بالياسمين الســـقائف
وأعجب منها††† أنهن نواظر ... إلى بركة ضمّت إليهـــا الطرائف
حصاها اللآلى سابح فى عبابها ... من الرقش مسموم الثعابين†††† زاحف

(*) رواه ياقوت فى « إرشاد الأريب » فى ترجمة الحسين بن الوليد المعروف بابن العريف النحوى ورواه المقرّى فى « نفح الطيب » فى ترجمة صاعد اللغوىّ ، والخفاجىّ فى « ريحانة الألبا » فى فصل طبقات الشعراء بأواخر الكتاب .

(**) السقائف بالقاف بعد السين ، كما فى « إرشاد الأريب » و « نفح الطيب » ، والذى فى « الريحانة » سفائف بفاءين . وهى جمع سفيفة للوعاء ينسج من خوص .

(***) هى رواية « الريحانة » . والذى فى « إرشاد الأريب » و « نفح الطيب » : فى الأرض .

(****) هى رواية « الريحانة » . والذى فى « إرشاد الأريب » و « نفح الطيب » : وأعجب .

(†) هى رواية « الريحانة » . والذى فى « إرشاد الأريب » و « نفح الطيب » : هامر .

(††) هى رواية « إرشاد الأريب » و « نفح الطيب » . والذى فى « الريحانة » : عليها فنها عبقر ورفارف .

(†††) هى رواية « إرشاد الأريب » و « نفح الطيب » . والذى فى « الريحانة » : من ذا

(††††) كذا فى « إرشاد الأريب » و « نفح الطيب » . والذى فى نسختين « من الريحانة » إحداهما مخطوطة : الرعانين ؛ وليحقق .

ترى ما تشاء* العين فى جنباتها من الوحش حتّى بينهنّ السلاحف

وكان إلى ناحية تلك السقائف سفينة فيها جارية من النوّار تجذف بمجاذيف من ذهب لم يرها صاعد ، فقال له المنصور أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية فقال :

وأعجب منها غادة فى سفينة مكللة يهفو إليها المهانف**
إذا راعها موج من الماء تتّقى بسكانها ما أنذرته العواصف
متى كانت الحسناء رُبّان مركب تُصَرِّف فى يمنى يديه المجاذف
ولم تر عينى فى البلاد حديقة تنقلها فى الراحتين الوصائف*** (٣٢٦)

ولقد صدق الشيخ ؛ فإنا لم نر ولم نسمع بمثل هذه الحديقة الأندلسية ، وكل ما وصل إليه علمنا من الطرف الزهرية قصر الورد الذى كان يعمل للخلفاء الفاطميين بمصر ، فمن يرى إلحاقه بهذه التماثيل ، فليسمع خبره عن المقريزى حيث يقول فى « خططه » : « وكان من أيام متنزهات الخلفاء يوم قصر الورد بناحية الخاقانية ، وهى قرية من قرى قليوب ، كانت من خاص الخليفة ، وبها جنان كثيرة للخليفة ، وكانت من أحسن المتنزهات المصرية ، وكان بها عدة دويرات يزرع فيها الورد ، فيسير إليها الخليفة يوماً ، ويصنع له فيها قصر عظيم من الورد ، ويخدم بضيافة عظيمة » (٣٢٧) .

ومما يحسن الاستطراد إلى ذكره ، وإلحاقه بتماثيل الزهر ما كانت تزين به بسانين مصر من النقش والكتابة بأنواع الرياحين ، على ما هو مفصل فى « خطط المقريزى »† فى الكلام على بستان خُمَارَوَيْه†† ، وقد آثرنا نقل وصف هذا البستان برمته ، لما فيه من بيان مبلغ القوم فى مظهر من مظاهر حضارتهم . قال :

« لما مات أحمد بن طولون ، وقام من بعده ابنه خمارويه ، أقبل على قصر أبيه وزاد فيه ، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه ، فجعله كله بستاناً ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف

(*) هى رواية « الريحانة » . والذى فى « إرشاد الأريب » و « نفح الطيب » : ما تراه .

(**) المهانف بالنون : اللاعب .

(***) وبعدها ثلاثة أبيات فى مدح المنصور بن أبى عامر .

(†) ذكره أيضاً ابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » ، وعبارة « الخطط » أكثر تفصيلا .

(††) كان قصر ابن طولون وميدانه وبستانه فى الجهة الواقعة بين مسجده والقلعة . ويدخل فيها ميدان القلعة والرميلة ، وأكثر أماكن قسم الخليفة أحد أقسام القاهرة الآن .

الشجر ، ونقل إليه الوَدِىّ* اللطيف الذى ينال ثمره القائم ، ومنه يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل ، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب** الرصاص ، وأجرى فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر إلى فساقى معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقى سائر البستان . وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة . وزرع فيه النَّيْلَوْفَر*** الأحمر والأزرق والأصفر ، والجنوى† العجيب . وأهدى إليه من خراسان وغيرها كل أصل عجيب ، وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن . وبنى فيه برجاً من خشب الساج†† المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص ، وزوقه بأصناف الأصباغ ، وبلط أرضه ، وجعل فى تضاعيفه أنهاراً لطافاً جداولها يجرى فيها الماء مدبراً من السواقى التى تدور على الآبار العذبة ، ويسقى منها الأشجار وغيرها ، وسرح فى هذا البرج من أصناف القَمَارِىّ والدّباسى والنونيات††† ، وكل طائر مستحسن حسن الصوت ؛ فكانت الطير تشرب وتغتسل من تلك الأنهار الجارية فى البرج ، وجعل فيه أوكاراً فى قواديس لطيفة ممكنة فى جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عيداناً ممكّنة فى جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضاً بالصياح . وسرح فى البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئاً كثيراً . وعمل فى داره مجلساً

(*) صغار النخل .

(**) المزاريب جمع مزراب : لغة ضعيفة فى الميزاب ، وهو مثعب الماء ومخرجه الذى يسيل منه ، والمقصود بها هنا قنىّ الرصاص التى يجرى فيها الماء .

(***) هو المعروف عند عامة مصر الآن بالبشنين .

(†) كذا بالأصل .

(††) ضرب عظيم من الشجر ، خشبه أسود رزين قيل إنه يشبه الآبنوس ولكنه أقل سواداً منه .

(†††) القمارى ضرب من الحمام . والدباسىّ جمع دبسى بضم أوله ؛ وهو طائر أدكن يقرقر ، والنونيات وردت هكذا بالأصل ، ولم أقف فيها على شىء ، ووردت فى عبارة « النجوم الزاهرة » النوبيات بالموحدة مكان النون الثانية .

برواقه سماه بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول* باللازورد المعمول فى أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً فى حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتى يغنينه بأحسن تصوير ، وأبهج تزويق ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب الخالص الإبريز الرزين والكرازن† المرصعة بأصناف الجواهر ، وفى آذانها الأخراص†† الثقال الوزن المحكمة الصنعة ، وهى مسمرة فى الحيطان ، ولونت أجسامها بأصناف أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من أعجب مبانى الدنيا »[٣٢٨] انتهى .

ويظهر أن عادة كسوة أجسام النخل للزينة كانت شائعة فى تلك العصور ؛ فقد قال الخطيب البغدادى فى مقدمة « تاريخ مدينة السلام » فى وصف بركة كانت بقصر المقتدر ما نصه : « وحوالى هذه البركة بستان بميادين فيه نخل قيل إن عدده أربعمائة نخلة ، وطول كل واحدة خمس أذرع ، وقد لبست جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجمّارة بحلق من شَبَهٍ مذهبة »[٣٢٩] .

(*) يرى بعض الفضلاء أن صوابه : المجدول باللازورد . وفى نسخة مخطوطة من « الخطط » عندنا : المحاول ، بالحاء المهملة ، ويقرب أن يكون محرفاً عن : المحلول . وجاء فى الحواشى المعلقة على نسخة « النجوم الزاهرة » المطبوعة بليدن أن فى بعض النسخ : وباللازورد ، أى بزيادة الواو ، وبها تستقيم العبارة ، ويكون صوابها : « طلى حيطانه كلها بالذهب المحلول وباللازورد المعمول فى أحسن نقش » الخ .

(†) الكرازن جمع كرزن : وهو لفظ فارسى كان يطلق على تاج مرصع بالجوهر يعلقه ملوك فارس فوق سرير الملك ، ويلبسونه أحياناً ، ويطلق أيضاً على قلنسوة من الديباج مرصعة وهى المرادة هنا . وقد ورد محرّفاً فى نسخة « الخطط » بلفظ : الكوادن ، بالواو والدال المهملة والظاهر أن عادة تعليق التاج المرصع فوق رأس الملك بقيت عند بعض الملوك الأعاجم بعد الإسلام . فقد ذكر ابن بطوطة فى « رحلته » عن طرمشين سلطان ما وراء النهر ، ووَصْف مجلسه ما نصه : « ولما دخلت إلى الملك بداخل الخرقة (الخيمة) وجدته جالساً على كرسىّ شبه المنبر مكسوّ بالحرير المزركش بالذهب ، وداخل الخرقة ملبّس بثياب الحرير المذهب ، والتاج المرصع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان بينه وبين رأسه قدر ذراع » .

(††) الذى فى « الخطط » : الأجراس ، ولا مناسبة بينها وبين الآذان . والذى فى « النجوم الزاهرة » : الأخراص ، بالخاء المعجمة والصاد المهملة ، جمع خُرْص بضم فسكون ، وهو الحلقة من الذهب والفضة ، أو حلقة القرط .